قَدْ فَعَلْتُ

٣٩ ـ عَنِ ابنِ عبَّاسٍ قَالَ: لما نزلَتْ هَذِهِ الآيةُ: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، قَالَ: دَخَلَ قُلُوبَهُمْ منها شَيْءٌ لَمْ يدخلْ قُلُوبَهُم مِنْ شيء، فَقَالَ النبيُّ ﷺ: «قُولُوا: سَمِعْنا وَأَطعْنَا وسلَّمْنا. قال: فألقَى اللَّهُ الإيمانَ في قُلوبِهِم، فأنزلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]».

قَالَ: قَدْ فعلْتُ.

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا[1] كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قال: قد فعلت.

﴿وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قَالَ: قَدْ فعلْتُ[2].

إن حسابَ الحق دقيق عادل، فالذين ثقُلَتْ كِفَّة أعمالهم الحسنة هم الذين يفوزون بالفردوس، والذين باعوا أنفسهم للشيطان وهوى النفس تثقل كِفَّة أعمالهم السيئة، فصاروا من أصحاب النار.

والحق سبحانه يطلب مِنَّا أن نكون دائماً على ذِكْر من قضية واضحة، هي: أن الكون كله لله، والبشر جميعاً بذواتهم ونفوسهم وما ظهر منها وما بطن لا يخفى على الله؛ لذلك قال تعالى:

﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ . . .﴾ [البقرة: ٢٨٤].

---

(١) الإصر: القيد والثقل والعهد المؤكد، وسميت التكاليف الشاقة إصراً لأنها تشق على المكلف وتثقل عليه. (القاموس القويم ١/ ٢١).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٢٦)، والترمذي في سننه (٢٩٩٢)، وأحمد في مسنده (١/ ٢٣٣). قال الترمذي: هذا حديث حسن.

فلن يخرج كائن مَنْ كان عن مُلْكه سبحانه، وما دام كل شيء في الكون مملوكاً للّه تعالى فلا شيء يخرج عن مراده سبحانه، فكل شيء في الوجود هو مِلْكٌ للّه، وهو يتصرّف بقدرته فيما يملك.

فإياكم أنْ تظنُّوا أن هناك مَهْرباً أو مَحِيصاً أو مَعْزلاً أو مفراً، فللّه ما في السماوات وما في الأرض، فلا السماوات تُؤوِي هارباً منه، ولا مَنْ في السماوات يعاون هارباً منه، فسبحانه المحيط عِلْماً بكل شيء، والقادر على كل شيء.

والحق سبحانه وتعالى يصف نفسه، فيقول: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣].

إنه إلٰه واحد يعلم السِّرّ والجهر، ويترتب على هذا أساسُ الثواب والعقاب، فلا تظن أيها الإنسان أنكَ تُفلِت من حساب ربك، وإنْ كان سبحانه يعلم السر فمن باب أوْلَى أن يعلم الجهر.

إنه سبحانه وتعالى يعلم السر من قبل أن يكون سِرّاً، وكل أمر قبل أنْ يصبح جهراً يكون سِراً، وقبل أنْ يكونَ سِرّاً هو أخفى من السر.

والحق سبحانه لا يحاسبنا على مقتضى ما علم فحسب، بل يحاسبنا على ما تَمَّ تسجيله علينا، إن كل إنسان يقرأ كتابه بنفسه، فسبحانه يقول:

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ ۚ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

والحساب معناه أن للإنسان رصيداً، وعليه أيضاً رصيد، يقول تعالى:

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩].

إذن: نحن أمام نوعيْن من البشر، هؤلاء الذين ثَقُلَتْ كِفَّة الخير في ميزان الحساب، وهؤلاء الذين ثقلت كفة السيئات والشرور في ميزان الحساب، فماذا عن الذين تساوت الكِفَّتان في أعمالهم، فاستوت حسناتهم مع سيئاتهم؟

إنهم أصحاب الأعراف الذين ينالون المغفرة من اللّه؛ لأن مغفرة اللّه وهو الرحمٰن الرحيم قد سبقتْ غضبه جَلَّ وَعلَا، ولو لم يجئ أمر أصحاب

الأعراف في القرآن لقال واحد: لقد قال الله لنا خبر الذين ثقلت موازينهم، وأخبار الذين خفَّتْ موازين الخير عندهم، ولم يَقُلْ لنا خبر الذين تساوت شرورهم مع حسناتهم.

لكن الحليم الخبير قد أوضح لنا خبر كل أمر، وأوضح لنا أن المغفرة تسبق الغضب عنده؛ لذلك فالحساب لا يكتفي الحقُّ فيه بالعلم فقط، ولكن بالتسجيل الواضح الدقيق؛ لذلك يُطمئِننا الحق سبحانه فيقول:

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

إن الحق سبحانه يطمئننا على أن ما نصنعه من خير نجده في كِفَّة الميزان، ويطمئننا أيضاً على أنه سبحانه سيجازينا على ما أصابنا من شر الأشرار، وأننا سنأخذ من حسناتهم، لتُضاف إلى ميزاننا.

إذن: فالطمأنينة جاءت من طرفيْن: طمأننا الحق على ما فعلناه من خير، فلا يُنسي أنه يدخل في حسابنا، وطمأننا أيضاً على ما أصابنا من شرّ الأشرار، وسيأخذ الحق من حسناتهم ليضيفها لنا.

إن هذه المسألة تحتاج إلى دقّة بالغة؛ لأننا وجدنا بعضاً من صحابة رسول الله ﷺ قد وقفوا فيها موقفاً أبكى بعضهم.

فهذا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما حين سمع هذه الآية قال: لئن آخذنا الله على ما أخفَيْنا في نفوسنا لنهلكن، وبكى حتى سُمع نشيجه بالبكاء[1].

وبلغ ذلك الأمر ابن عباس فقال: يرحم الله أبا عبد الرحمٰن، لقد وجد إخوانُه المسلمون مثلما وجد من هذه الآية[2].

فأنزل الله بعدها قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

---

(١) أورده ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٣٨) أثر عبد الله بن عمر.

(٢) قال ابن مرجانة: فقمت حتى أتيت ابن عباس فذكرت له ما قال ابن عمر وما فعل حين تلاها فقال ابن عباس: يغفر الله لأبي عبد الرحمٰن، لعمري لقد وجد المسلمون منها حين أنزلت مثل ما وجد عبد الله بن عمر. ذكره ابن كثير في تفسير الآية (١/ ٣٣٨).

فالحق سبحانه لم يُكلِّفكم إلا ما هو في الوُسْع؛ لأن الأحداث بالنسبة لعزم النفس البشرية ثلاثة أقسام:

القسم الأول: هو مَا لا قدرةَ لنا عليه، وهذا بعيد عن التكليف.

القسم الثاني: لنا قدرة عليه، لكن بمشقة، أي: يجهد طاقتنا قليلاً.

القسم الثالث: التكليف بالوُسْع.

إذن: فالحقُّ سبحانه لا يُكلِّف النفس إلا بتكليف تكون فيه طاقتها أوسع من التكليف، كلَّف الحقُّ كلَّ مسلم بالصلاة خمسة فروض كُلَّ يوم، وتملأ أوقاتها بالصلاة، وكان من الممكن أن تكون عشرة، بدليل أن هناك أناساً تتطوع، وهو سبحانه كلَّف كل مسلم بالصوم شهراً، ألا يوجد مَنْ يصوم ثلاثة أشهر؟ ومثل هذا في الزكاة، فهناك مَنْ كان يخرج عن ماله كله لله، ولا يقتصر على ما يجب عليه من زكاة.

إذن: فهذا في الوُسْع، ومن الممكن أن تزيد، فكل التكاليف التي كلَّفنا الله بها في وُسْعنا، وأقل من وُسْعنا، بدليل أن المشرِّع سبحانه يعطي الرخصة عندما يكون التكليف ليس في الوُسْع.

ومثال هذا قوله تعالى عن الصيام: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فعليك أن تتقي الله ما استطعت بما كان في استطاعتك من الوُسْع، وساعة تكون غير مستطيع فهو سبحانه الذي يُخفِّف، إنك لا تخفف أنت على نفسك أيها العبد، فالخالق الحق هو الذي يعلم إذا كان الأمر خارجاً عن استطاعتك أو لا، وساعة يكون الأمر خارجاً عن استطاعتِك، فالله هو الذي يُخفِّف عنك.

ولذلك، فعلى الإنسان ألَّا يستخدم القول الحق: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، في غير موضعه؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يُقدِّر الوُسْع، ثم يبني التكليف على الوُسْع، بل عليك أن تفهم أيها الإنسان أن الله هو الذي خلق النفس، وهو الذي أنزل التكليف لوُسْع النفس، وما دام الخالق للنفس هو الله فهو العليم بوُسْع النفس حيثما قرر لها المنهج.

إن الله قد كلفك فهو عليمٌ بأن ذلك في وُسْعك؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وُسْعها، ونحن نسمع الآن صيحات تقول: إن العصر لم يَعُدْ يحتمل، وأن ظرف الدنيا وسرعة الحركة فيها وسرعة الأحداث هي تبرير أنه ليس في وُسْعنا أنْ نُؤدِّي بعض التكاليف.. ربما كان هذا التكليف في الوُسْع في الماضي عندما كانت الحياة بسيطة، وحركتها بطيئة ومشكلاتها محدودة.

نقول لمن يردد هذا الكلام: إن الذي كلَّفك قديماً هو الله سبحانه وتعالى، إنه يعلم أن في وُسْعك أن تؤدي التكليف وقت نزوله، وبعد آلاف السنين من نزوله وحتى قيام الساعة، والدليل على ذلك أن هناك مَنْ يقوم بالتكليف ويتطوع بأكثر منه ليدخل في باب الإحسان.

فهناك مَنْ يصلي الفروض وهي التكليف، وهناك مَنْ يزيد عليها السنن، وهناك مَنْ يقوم الليل فيظل يتقرب إلى الله تبارك وتعالى بالتطوع من جنس ما فرض.

وهناك مَنْ يصوم رمضان، ومَنْ يتطوع ويصوم أوائل الشهور العربية، أو كل اثنين وخميس على مدار العام أو في شهريّ رجب وشعبان.

وهناك مَنْ يحج مرة، ومَنْ يحج مرات... وهناك مَنْ يلتزم بحدود الزكاة، ومن يتصدق بأكثر منها.

إذن: كل التكاليف التي كلفنا الله بها في وُسْعنا وأقل من وُسْعنا، ولا يقال: إن العصر قد اختلف، فنحن الذين نعيش هذا العصر بكل ما فيه من متغيرات نقوم بالتكاليف، ونزيد عليها دون أيّ مشقة.

وعندما يطرأ على الإنسان ما يجعل الحكم في غير الوُسْع، فإن الله يُخفِّف التكليف، فالمسافر تقول له الشريعة: أنت تخرج عن حياتك الرتيبة، وتذهب إلى أماكن ليس لك بها مُسْتقر؛ لذلك يُخفِّف الحق عليك التكليف، فَلَكَ أن تفطر في نهار رمضان، ولك أنْ تقصُرَ الصلاة.

والحق سبحانه يعلم أن الوُسْع قد يضيق؛ لذلك فإنه جَلَّ شأنه يخفف حكم التكليف، ويمنح الرخص عند ضيق الوُسْع، ومثال ذلك قول الحق تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ وَإِن

﴿يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥].

فكان المقاتل المسلم مطالباً بأن يقاتل عشرة من الكافرين، فكانت النسبة واحداً إلى عشرة، ولكن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ خفف هذا الحكم، فقال تعالى:

﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦].

ونحن نعلم أن هناك شروطاً للمقاتل، أولها: أن يكون المقاتل قويَّ البدن وقويَّ الإيمان، وعلى دراية بحيل الحرب وفنونها، بحيث يستطيع أن يناور، ويُغيِّر مكانه في المعركة، ويخدع عدوه؛ لأن نتيجة المعركة لا تحسمها معركة واحدة، بل لا بُدَّ من كرّ وفرّ، وإقبال وإدبار، وخداع للقتال ومناورات، مثلما فعل خالد بن الوليد في كثير من المعارك.

إذن: فلكَيْ تضمن أن عشرين صابرين يغلبون مائتين، لا بُدَّ أن يتحقق في هؤلاء جميعاً قوة بدن وصبر وجَلَد، ولكن قد لا تكون قوة البدن متوافرة والجَلَد ضعيفاً، وقد تأتي للإنسان فترات ضعف، وتأتيه أيضاً فترات قوة.

ومن رحمته ـ سبحانه وتعالى ـ بالمؤمنين أنه خفَّف عنهم؛ لأنه يعلم أن هناك فترات ضعف تصيب الإنسان؛ لذلك جعل النسبة واحداً إلى اثنين.

والحق سبحانه يقول على لسان عباده المؤمنين:

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا . . .﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ولقائل أن يقول: إن الرسول ﷺ طمأننا، فقال: «**رُفع عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استُكرهوا عليه**»[1]. فكيف يأتي القرآن بشيء مرفوع عن الأمة الإسلامية ليدعو به الناسُ ربهم ليرفعه عنهم؟

على مثل هذا القائل نردُّ: هل قال أحد: إن رَفْع الخطأ والنسيان والاستكراه كان من أول الأمر؟ لعل الرفع حدث بعد أنْ دعا الرسول

---

(١) أخرج ابن ماجه في سننه (٢٠٤٥) والدارقطني في سننه (٤/ ١٧٠) والحاكم في المستدرك (٢/ ١٩٨) وصححه على شرط الشيخين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تجاوز عن أمتي: الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

والسابقون من المؤمنين، فما دام قد رُفع فمعنى ذلك أنه كان موجوداً. إذن: فلا يقولَنَّ أحد: كيف تدعو بشيء غير موجود؟

أو: أن ذلك يدل على منتهى الصفاء الإيماني، أي: اللَّه يحب ألّا يعصَى إلا خَطأ أو نسياناً، وأن اللَّه لا يصحّ ولا يستقيم أن يُعصى قصداً؛ لأن الذي يعرف قَدْر اللَّه حقاً لا يليق منه أن يعصي اللَّه إلا نسياناً أو خطأ؛ لأن الخالق هو المنعم بكل النعم، وبعد ذلك كلفنا، وكان يجب ألّا نقصد المعصية.

ولذلك، فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ قد سمَّى ما حدث من آدم معصية، مع أنه يقول: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

وسمَّى اللَّه النسيان في قصة آدم معصية: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]، فكان النسيان أولاً معصية، ولكن اللَّه أكرم أمة محمد، فرفع عنها النسيان، وفي مسألة آدم: هناك ملحظ يجب على المؤمن أن يتنبه إليه، فآدم خُلِق بيد اللَّه، ونحن مخلوقون بقانون التكاثر، وآدم تلقَّى التكليف من اللَّه مباشرة وليس بواسطة رسول، وكُلِّف بأمر واحد، وهو ألّا يأكل من الشجرة.

فإذا كان آدم مخلوقاً من اللَّه مباشرة، ومكلفاً من اللَّه مباشرة، ولم يُكلَّف إلا بأمر واحد، وهو ألّا يقربَ هذه الشجرة، ولم تكن هناك تكاليف كثيرة، فماذا نسي؟ وماذا تذكَّر؟ إنها معصية إذن.

لقد كان النسيان بالنسبة لآدم معصية، لأنه مخلوق بيد اللَّه؛ لذلك لم يكُنْ من المناسب أن ينسى هذا التكليف الواحد، وما كان يصح له أنْ ينسى، ولعل سيدنا آدم نُسِّي لحكمة يعلمها اللَّه، ربما تكون ليعمر الأرض التي جعله اللَّه خليفة فيها.

أما بالنسبة لأمة محمد، فحينما نقول: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فكأننا يا رب نقدرُك حق قَدْرك، ولا نجترئ على عصيانك عمداً، وإنْ عصينا فإنما يكون العصيان نسياناً أو خطأ، وهذه معرفة لقدر الحق سبحانه وتعالى.

ولكن، ما النسيان؟ وما الخطأ؟

فالخطأ كأن يقصد الإنسان شيئاً ويحدث غيره، أما النسيان فهو ألّا يجيء الحكم على بال الإنسان.

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك.

﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

والإصْر: هو الشيء الثقيل الذي يثقُل على الإنسان. ومن ذلك الإصر الذي نزل على اليهود: إنْ أردتم التوبةَ فاقتلوا أنفسكم، أو تصدَّقوا، أو زكُّوا بربع أموالكم.

وقد قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة: ٥٤].

وعندما نزل حكم اللّٰه تبارك وتعالى هذا، جعل موسى بني إسرائيل يقفون صفوفاً، وقال لهم: إن الذي لم يعبد العجل يقتل مَنْ عبده، ولكنهم حين وقفوا للتنفيذ كان الواحد منهم يجد ابن عمه وأخاه وذوي رحمه أمامه فيشقُّ عليه التنفيذ، فرحمهم اللّٰه بأن بعث ضباباً يسترهم حتى لا يجدوا مشقة في تنفيذ القتل. وقيل: إنهم قتلوا من أنفسهم سبعين ألفاً[١].

والحق يوضح أن الإسلام لم يأتِ بمثل ما جاءت به الشرائع السابقة التي كانت التوبة فيها تقتضي قتل النفس، تلك الشرائع التي رأت أن النفس تغوي صاحبها بمخالفة المنهج فلا بُدَّ أن يضيعها.

ومن لُطْف اللّٰه أنه سبحانه لم يصدر علينا مثل هذا الحكم، ولذلك فسيدنا عبد اللّٰه بن مسعود، وسيدنا عمار بن ياسر وثابت بن قيس، كل هؤلاء قالوا: واللّٰه لو أُمِرْنا بهذا لفعلنا.

وقال سيدنا عمر: واللّٰه لو أُمِرْنا بهذا لفعلنا، والحمد للّٰه الذي لم يفعل بنا ذلك. إذن: فهذا لُطْف، إنه بيَّن لهم: لو كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو يخرجوا من ديارهم كما حدث لقوم موسى، ماذا كانوا يفعلون؟

لكن ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ استجاب لدعائهم:

(١) انظر الروايات التي وردت في هذا في تفسير ابن كثير (١/ ٩٢، ٩٣).

﴿ وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

لقد استجاب الحق سبحانه لهم، ولم يعاملنا كما عامل الأمم السابقة علينا.

وعندما نقول: ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ فنحن نُصدِّق أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**قال اللَّه: نعم**». ومعنى «**قال اللَّه: نعم**»، أنه سبحانه وتعالى أجاب الدعاء برفع المشقة عن الأمة.

أي: أن اللَّه لن يُحمّلنا ما لا طاقة لنا به.

وعندما نقول: ﴿ وَٱعْفُ عَنَّا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

فنحن نتوجه إلى اللَّه ضارعين: أنت يا حقُّ تعلم أننا مهما أُوتينا من اليقظة الإيمانية والحرص الورعي فلن نستطيع أنْ نُؤدِّي حقّك كاملاً؛ ولذلك لا ندخل عليك إلا من باب أنْ تعفو عنا.

ومعنى العَفْو مَحْو الأثر، كالسائر في الصحراء تترك قدماه علامة، وتأتي الريح لتزيل هذا الأثر، كأن هناك ذنباً والذنب له أثر، وأنت تطلب من اللَّه أن يمحو الذنب.

ولنتعلم ما علّمه رسول اللَّه ﷺ لعائشة أم المؤمنين، لقد سألت رسول اللَّه إذا صادفتْ ليلة القدر فقالت: إنْ أدركتني هذه الليلة بماذا أدعو؟

انظروا إلى رسول اللَّه ﷺ، لقد علّم أم المؤمنين عائشة أن تدعو بمقاييس الخير الواسع، فقال لها: «**قولي: اللهم إنك تحب العفو فاعف عني**»(١).

ولا يوجد جمال أحسن من العفو، ولا يوجد خيْر أحسن من العفو.

وعندما تقول: «**واغفر لنا**» فأنت تعرف أن من مظاهر التكوين البشري النية التي تريد أنْ تُحوّل العزم إلى حيِّز السلوك والانفعال النزوعي، فالمسألة تحتاج منك إلى تدريب، ومثال ذلك: عندما يذنب واحد في حقك فلَكَ أنْ

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٦/١٨٣، ٢٥٨)، والترمذي في سننه (٣٥١٣) وكذا ابن ماجه في سننه (٣٨٥٠) من حديث عائشة رضي اللَّه عنها.

تردَّ عليه الذنب بالذنب، ولك أنْ تكظِم الغيظ، لكن يظلّ الغيْظ موجوداً وأنت تحبسه. ولكَ أنْ تعفو.

ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

فإنْ أساء أخوك إليك سيئة، فإما أنْ تردَّ بالمثل، أو تكظم الغيظ، أو ترقى إلى العفو، وبذلك تكون من المحسنين، لأنك إذا كنت قد ارتكبتَ سيئة، وعلمتَ أن اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ يغفرها لك، ألَا تشعر بالسرور.

إذن: فما دُمْتَ تريد أنْ يغفر اللَّه تعالى لك السيئة عنده، فلماذا لا تعفو عن سيئة أخيك في حقك؟ وقد جعل الحق سبحانه عفو العبد عن سيئة العبد بحسنة، فلعفو العبد ثمن عند اللَّه تعالى؛ لأن العبد سيأخذ مغفرة اللَّه تعالى، وفوق ذلك فأنت تترك عقاب المسيء والانتقام منه لربك، وعند التسليم له راحة.

ولو اقتصصتَ أنت مِمَّنْ أساء إليك، فقصاصك على قَدْر قوتك، أما إنْ تركته إلى قدرة اللَّه تعالى، فهذا أصعب وأشقّ؛ لأنك تركته إلى قوة القوي، وهكذا ينال العافي عن المسيء مرتبة راقية؛ لأنه جعل اللَّه سبحانه وتعالى في جانبه.

لكن، ماذا عن مِثْل هذا الأمر بالنسبة للخالق الذي له كمال القدرة؟ إن اللَّه قد لا يُعذِّب العبد المذنب، ولكنه قد يظلّ غاضباً عليه، ومَنْ مِنَّا قادر على أنْ يتحمَّل غضب الرب؟

لذلك نطلب المغفرة ونقول: «واغفر لنا وارحمنا»، فنحن ندعوه سبحانه ألَّا يدخِلنا في الذنب الذي يُؤدِّي إلى غضبه ـ والعياذ باللَّه ـ علينا. فالعفو هو أن نرتكب ذنباً، ونطلب من اللَّه المغفرة، ولكن الرحمة هي الدعاء بألَّا يُدخِلنا في الذنب أصْلاً.

وعندما يقول الحق سبحانه: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. فهذا اعتراف بعبوديتنا له، وأنه الحق خالقنا ومُتولِّي أمورنا وناصرنا، وما دام الحق هو ناصرنا فهو ناصرنا على القوم الكافرين.

يقول تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ . . . ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

فهو يريد من الذين آمنوا أنْ يجعلوا إيمانهم شيئاً واحداً، وليسوا متعددين، أو أن ولاية الله لكل فرد على حِدَةٍ تكون ولاية لجميع المؤمنين، وما داموا مؤمنين فلا تضاربَ في الولايات؛ لأنهم كلهم صادرون وفاعلون عن إيمان واحد، ومنهج واحد، وعن قول واحد، وعن فعل واحد، وحركة واحدة.

إنه وليُّهم أي: ناصرهم ومُحبّهم ومُجيبهم ومُعينهم، هو وليهم بما أوضح لهم من الأدلة على الإيمان، هل هناك حُبٌّ أكثر من هذا، هل تركنا لنبحث عن الأدلة، أو أنه لفتنا إلى الأدلة؟

وتلك هي ولاية من ولايات الله، فقبل أن نؤمن أوجد لنا الأدلة، وعندما آمنا والانا بالمعونة، وإنْ حاربنا خصومنا يكُنْ معنا، وبعد ذلك تستمر الولاية إلى أن يعطينا الجزاء الأوْفى في الآخرة.

إذن: فهو وليٌّ في كل المراحل، بالأدلة قبل الإيمان وليّ، ومع الإيمان استصحاباً يكون ناصرنا على خصومنا وخصومه، وفي الآخرة هو ولينا بالمحبة والعطاء، ويعطينا عطاء غير محدود. إذن: فولايته لا تنتهي.

كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟

٤٠ ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْه ـ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

«يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاةِ العَصْرِ وَصَلاةِ الفَجْرِ[1]، ثُمَّ يَعرجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُم فَيسألُهم وهُوَ أعلَمُ بِهِم: كَيفَ تركتُم عِبادِي؟ فَيقولُونَ: تركْناهُم وهُمْ يُصلُّون، وَأتيناهُمْ وهُمْ يُصَلُّونَ»[2].

للحق سبحانه وتعالى ملائكة يتناوبون على حراسة الإنسان وحِفْظه، ليلاً ونهاراً من الأشياء التي لا يمكن الاحتراز منها، ومثال هذا هو تلك الإحصاءات التي خرجتْ عن البشر الذين تلدغهُم الثعابين، فقد ثبت أنها لا تلدغُهم وهم نائمون، بل في أثناء صَحْوتهم. أي: ساعة يكونون في سِتْر النوم، فهناك ما يحفظهم، أما في اليقظة فقد يتصرّف الإنسان بطيْش وغفلة فتلدغه الأفعى.

ونحن نقول في أمثالنا الشعبية: «العَيْنُ عليها حارس»، ونلحظ كثيراً من الأحداث التي تبدو لنا غريبة، كأن يسقط طفل من نافذة دَوْر علوي فلا يُصاب بسوء؛ لأن الحق سبحانه شاء أنْ تحفظَه الملائكة المعقبات من السوء؛ لأن مهمة الحفظة أن يحفظوا الإنسان من كل سوء.

وهكذا نرى أن الحق سبحانه قد أعدَّ للإنسان الكون قبل أنْ يخلقَه

---

(١) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (المجلد ٣/ ص١٣٩) طبعة دار القلم ـ بيروت ١٩٨٧: «أما اجتماعهم في الفجر والعصر فهو من لطف الله تعالى بعباده المؤمنين وتكرمة لهم أن جعل اجتماع الملائكة عندهم ومفارقتهم لهم في أوقات عباداتهم واجتماعهم على طاعة ربهم، فتكون شهادتهم لهم بما شاهدوه من الخير».

(٢) متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٥٥٥)، ومسلم في صحيحه (٦٣٢) وأحمد في مسنده (٢/ ٨٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ليستخلفه فيه، أعدَّ السماوات، وأعدَّ الأرض، وسخَّر الشمس والقمر، وأخرج الثمرات، وجعل الليل يُغشِي النهار.

كُلُّ ذلك أعدَّه سبحانه للخليفة قبل أن يوجد الخليفة، وهو سبحانه قيُّوم على هذا الخليفة، فيصونه أيضاً بعد الخَلْق، ولا يدعه لمقوِّمات نفسه ليدافع عنها، فيما لا يستطيع الدفاع عنها، ويُكلِّف الله الملائكة المعقبات بذلك.

يقول الحق سبحانه: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

وقد ينصرف معنى المعقِّبات إلى الملائكة الذين يتعقَّبون أفعال الإنسان وكتابة حسناته، وكتابة سيئاته، ويمكن أنْ يقوما بالعملية معاً، حِفْظه وكتابة أعماله، فإنْ كتبوا له الحسنات فهذا لصالحه.

ولقائل أنْ يقولَ: ولكنهم سيكتبون السيئات، وهذه على الإنسان وليستْ له. وأقول: لا، ويحسُن أنْ نفهم جيداً عن المشرِّع الأعلى، ونعلم أن الإنسانَ إذا ما عرف أن السيئة ستُحسب عليه وتُحصَى، وتُكتب، يمسك كتابه ليقرأه، فلسوف يبتعد عن فِعْل السيئات.

فكتابة الحسنات والسيئات هي مسألة لصالح الإنسان، وحين يتعاقبون على الإنسان فكأنهم يصنعون دوريات لحماية الفرد.

فالإنسان مخدوم من كُلِّ أجناس الكون حتى من الملائكة، فالكون كلُّه يدور من أجلك وفي خدمتك، يعطيك عطاء دائماً لا ينقطع دون سعْي منك.

والحق سبحانه يقول: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢].

فهناك من الملائكة مَنْ سيُسجِّل على الإنسان أعماله، وكل قَوْل يقوله، وكلّ فِعْل يفعله، بل ويكتبون هذه الأفعال.

ويقول تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

فكل لفظ له رقيب عتيد، أي: ملائكة يحفظون ويحصون أعمالكم ويُسجِّلونها، وهم الكرام الكاتبون، وكلما تقدم العلم أعطانا فَهْماً للمعاني الغيبية، وإنْ كانت المعاني الغيبية التي نستقبلها عن الله دليلنا فيها السماع،

ففيه رقيب وعتيد يكتبان فقط، هكذا قال ربنا، فآمنا بما قال وانتهتْ المسألة، وهذا هو المطلوب.

ولذلك قال الحق: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣].

لأن الإيمان لو كان بالمشهد، فما الفَرْق ـ إذن ـ بين الناس؟ إن الإيمان في كماله وقمّته هو الإيمان بالغيب، فإذا قال الحق سبحانه: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

فهذا خبر عن الملائكة الذين يكتبون الحسنات ويكتبون السيئات، وحين ننظر إلى البشر نجدهم يتفاوتون، ويرتفع بعض منهم على بعض في صفات وقدرات، وكلّما تقدم الزمن عرف الإنسان سراً من أسرار الله يترقى به.

وقديماً عندما صنعوا جهاز التسجيل كان حجمه كبيراً، ثم تقدم العلم حتى صَغُر حجم المسجّل. إذن: كلما تقدمت الصنعة صغُرَتْ الآلة، لدرجة أنهم صنعوا مُسجِّلاً في حجم الساعة، ثم صنعوا آخر في حجم «فَصّ الخاتم»، وصنعوا مُسجِّلاً يشبه الحبوب، وينثرونها في أيّ مكان عندما يريدون التقاط أسرار جماعة أو أسرار مجلس.

إذن: كلما قويَتْ قدرة الصانع دقّتْ الصنعة، فإذا نسبتها لله، فأين دِقّة الذي صنعتَه أنت بجانب دِقّة صنعة الله؟

فإذا كان واحدٌ من البشر قد استطاع أنْ يأتيَ بمُسجِّلات غير مرئية مع أن قدرته محدودة، وحكمته في الصنعة محدودة، فإذا قال ربُّك: إن هناك ملائكة لن تراهم، وستُحصي عليك أعمالك وهم غَيْب فقُلْ: على العين والرأس.

ورسول الله ﷺ يقول هنا: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر**».

فحديثه ﷺ ملحوظ فيه الوقت الزمنيّ للحركة الإنسانية، فكل حركات الإنسان وعمله يكون من الصبح إلى العصر، ثم يرتاح الإنسان غالباً من بعد ذلك، ثم ينام.

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

أي: أن ملائكة الليل يشهدون، ومعهم ملائكة النهار[١].

وحديث رسول الله ﷺ ملحوظ فيه الوقت الزمني للحركة الإنسانية، فكل حركات الإنسان وعمله يكون من الصبح إلى العصر، ثم يرتاح الإنسان غالباً من بعد ذلك، ثم ينام.

والمعقبات يكُنَّ من بين يدي الإنسان ومن خلفه، ومن بين يديه من أجل الرصد، ولذلك وجدنا أبا بكر الصديق رضي الله عنه أثناء الهجرة النبوية كان يسير بعض الوقت أمام النبي ﷺ، وكان يسير البعض الآخر خلف النبي ﷺ.

كان أبو بكر رضي الله عنه يتقدم ليرقب: هل هناك من يرصد الرسول أم لا؟ ثم يتراجع إلى الخلف ليمسح كل المكان بنظره ليرقب: أهناك من يتبعهما؟

وهكذا حرص أبو بكر على أنه يحمي الرسول ﷺ من الرَّصد أو التربُّص؟[٢] ويقول الحق سبحانه: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

والسطحي يقول: إن تلك الملائكة يحفظون الإنسان من الأمر المراد به من الله.

ونقول: إن الله لم يُنزل الملائكة ليعارضوا قدره، وهذا الحفظ لا يكون من ذات الإنسان لنفسه، أو من الملائكة ضد قدر الله، والمعنى هنا ينصرف إلى أن الملائكة إنما يحفظون الإنسان بأمر الله.

---

(١) أخرج أحمد في مسنده (٢/ ٤٧٤) والترمذي في سننه (٣١٣٥)، وابن ماجه في سننه (٦٧٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال في هذه الآية: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، «تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار».

(٢) أخرج البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٤٧٦) أن عمر بن الخطاب قال: والله لليلة من أبي بكر خير من آل عمر، ولبوم من أبي بكر خير من آل عمر، لقد خرج رسول الله ﷺ ليلة انطلق إلى الغار ومعه أبو بكر رضي الله عنه، فجعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه، حتى فطن له رسول الله ﷺ فقال: «يا أبا بكر ما لك تمشي ساعة بين يدي وساعة خلفي؟ فقال: يا رسول الله أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك».

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

والاستقامة هي أَخْذ الشيء على قوامه دون اعوجاج، والاستقامة تتطلب سيراً؛ لأنه سيسميه الصراط المستقيم، والطريق قد يكون واسعاً مثل (الأوتوستراد)، ولكنه ليس صراطاً، فيريد الله منك أن تجعل الوسيلة إلى الغاية من عمل التكليف مستقيمة مثل الصراط، لا يميل شعرة إلى اليمين ولا إلى الشمال، لأن الله يريد أن يقرب عليك المسافة التي ستوصلك إلى الغاية فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠].

أي: ساروا في الاتجاه المستقيم، دون أن يلتفتوا يميناً ولا شمالاً ولم يربعوا في الطريق الواسع، بل ساروا في وسطه دون ميل أو انحراف، فالخط المستقيم هو أقصر بُعْد بين نقطتين.

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ حين يطلب منا ذلك يريد أن يُثمِّر حركتنا، ولا يتعبنا في الحركات الطويلة التي لا تجدي، ولكن يجعلها حركة قريبة وموصلة للغاية.

والحق سبحانه يلفتنا هنا إلى أهم ركن من أركان الاستقامة، وهي الصلاة، وهي لا تسقط عن المؤمن أبداً، حتى لو صلَّى بخطور أفعال الصلاة على قلبه، أو يصلي بحركة رموش عينيه، فهي لا تسقط عن المسلم ما دام له وعي.. لماذا؟

لأن الصلاة حضور في معيّة الله، فالزكاة تكون عند جمع المحصول، والصوم مرة في العام في شهر رمضان، والحج مرة في العمر، أما الصلاة فكل يوم خمس مرات، فالعبد صنعه ربه، والذي صنعه يريده أن يذهب إليه كل يوم خمس مرات.

ولذلك، خذ آلة من آلات البشر، واجعل مهندساً يتابع حركتها وصيانتها كل يوم خمس مرات، هل يصيبها عطب؟ لا يمكن، كذلك أنت حين تذهب إلى ربك كل يوم خمس مرات.

لا يمكن أن يصيب حياتك عطب، ولأن المهندس يصلح الآلة بإمكاناته هو في الدنيا، فقد يحدث العطب رغماً عنه.

أما الحق سبحانه ـ وله المثل الأعلى ـ فيصلحه بشيء لا تدركه، ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا جاء ميعاد الصلاة يقول: «**أرحنا بها يا بلال**» ولم يقل: أرحنا منها.

فالصلاة التي هي أم الاستقامة لا تسقط عن المكلف أبداً، فقد يكون الإنسان مريضاً أو مسافراً فلا يصوم، وقد لا يكون عنده دخل فلا يزكي، وليس عنده قدرة مالية أو بدنية فلا يحج.

إذن: قد تسقط عنه هذه الأركان، إلا أن الصلاة لا تسقط وشهادة أن لا إله إلا الله التي هي القمة، لو قالها الإنسان مرة واحدة دخل الإسلام، أما الصلاة فكل يوم خمس مرات.

وقد أخذت الصلاة قيمتها من أنها جاءت فرضيتها بالمباشرة لا بالوحي وذلك في ليلة الإسراء والمعراج، فهي قد أخذت قيمتها بالتكليف المباشر من الله عز وجل.

وهي مع كل هذا تجمع كل الأركان التي بني عليها الإسلام؛ لأن أركان الإسلام وأولها شهادة التوحيد نقولها في الصلاة، والصوم يتمثل في أن المصلي يصوم في صلاته عما هو أكثر مما يصوم عنه في رمضان.

ففي رمضان يصوم المسلم عن الطعام والشراب والجماع (أي: يصوم عن شهوتي البطن والفرج)، أما في الصلاة فهو يصوم عما هو أكثر من هذا، فهو يمسك أيضاً عن الحركة وعن الكلام، وعن النوم. إذن: في الصلاة صيام أبلغ وأشمل.

وفي الصلاة زكاة أيضاً؛ لأنك تقتطع من وقتك جزءاً للصلاة، فهذا زكاة عن وقتك، كما أن فيها حجاً لأنك لا تصلي إلا إذا تحريت التوجه إلى بيت الله الحرام، وتستحضر توجهك إليه، وتضعه أمام عينيك كل يوم خمس مرات.

إذن: الصلاة وإن كانت لا تسقط عن المكلف، فقد شملت كل ألوان

العبادة، ولذلك قالوا: إن الفارق بين المؤمن والكافر هي الصلاة.

والصلاة فيها التنزلات كلها؛ ولذلك تجد العظمة في أن اللَّه حين يدعوك هو الذي يقول لك تعال، وإن لم تأت فأنت عَاصٍ، مع أنك أنت المحتاج إليه.

ونحن في الدنيا حين يحب الإنسان أنْ يقابلَ مسؤولاً كبيراً يكتب له طلباً بالمقابلة، وقد يقبل الطلب أو يرفضه، فإنْ قبله لا بُدَّ أن يعرف سبب المقابلة، ثم يُحدِّد موعد المقابلة ومكانها، وبعد ذلك هو الذي يُنهي المقابلة.

هذا في البشر، لكن اللَّه لا يصنع ذلك مع خَلْقه، بل إن أردْتَ أنْ تُكلِّم ربك قِفْ في أيِّ مكان وادخل في الصلاة، ستصبح في معيته، ولن يسأل عن سبب المقابلة، وماذا تريد؟

وهو سبحانه لا يريد منك إلا أنْ تؤمنَ به، ثم تسلك زمام القُرْب، فلا تطلب منه أنْ تذهب إليه، ولكنه يفرض عليك أنْ تأتيه فهو عزيز، ولكنك تلقاه في أيِّ وقت تشاء، وفي أيِّ مكان تحب.

فإذا أردتَ أنْ يذكرَك اللَّه فاذْكُرْه، وإنْ ذكرتَهُ في نفسك ذكرك في نفسه، وإنْ ذكرته في ملأ يُطيع ويعصي، ذكرك في ملأ من الملائكة لا يعصون اللَّه أبداً.

فانظر إلى هذه العبودية للَّه، كم تعطيك من العِزَّة والكرامة.

ورَبُّ العزة ـ سبحانه ـ هنا يسأل ملائكته ـ وهو أعلم بما يسأل عنه: كيف تركتُم عبادي؟ فيقولون: «**تركناهم وهم يصلُّون، وأتيناهم وهم يصلون**».

إنهم عباد للَّه، يحافظون على صلواتهم وقُرْبهم من اللَّه عز وجل، وهؤلاء يقول عنهم الحق سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢].

فالصلاة عماد الدين، مَنْ أقامها فقد أقام الدين، وحين نُحلِّل الأمر تحليلاً طبيعياً نجد أن الناس تنفر من الطاعات؛ لأنها تأخذ زمناً يحبون أنْ يقضُوه في اللعب.

وحين نقول لواحد مثلاً: اترك عملك وصَلِّ، قد يرد: لا، لأنِّي حين

أترك عملي يضيع عليَّ كذا. ولو كان طبيباً لذكر عدداً من المرضى سيكشف عليهم، ولو كان عاملاً لَقال: إنَّ توقُّف الآلة في أثناء الصلاة يجعلني أخسر كثيراً.

وهنا نقول: يا أخي تعالَ إلى الطاعة، والبركة تُعوِّض لك ما تظن أنك تخسره.

وإذا نظرت إلى أركان الإسلام تجدها بالنسبة لانشغال الزمن بها لا تأخذ الكثير من الوقت، فشهادة أنْ «لا إله إلا الله محمد رسول الله» لا تحتاج منك إلا أنْ تقولها مرة واحدة، وهذا رُكْن لم يستغرق زمناً طويلاً بالنسبة لأدائه، والزكاة لا تأخذ منك إلا ما تعطيه يوم الحصاد بالنسبة لزكاة الزروع، وهذا يستغرق وقتاً قليلاً، وكذلك زكاة المال آخر العام، والصوم شهر في السنة، وإذا كان زَمَنُ الصوم أوسع قليلاً؛ إلا أنه وَقْتٌ لا يأتي إلا شهراً في كل عام، والحج مرة في العمر إنْ كنت مستطيعاً.

إذنْ: أنت تجد التكاليف الرُّكْنية في الإسلام بالنسبة للأزمان وقتها يسير وقليل لمنْ يحرص عليها، لكن الصلاة تُؤدَّى في كل يوم خمس مرات، ورُقْعتها بالنسبة للزمن أوسع، وأداؤها يحتاج إلى طهارة مِنْ حدث أو جنابة، وكذلك طهارة المكان؛ لذلك جاءت الصلاة رُكْناً أصيلاً في الإسلام، وأنت لا تعرف الإنسان إنْ كان مسلماً إلا إذا سمع الأذان وقام يُصلِّي؛ لذلك فالصلاة هي الفارقة بين المسلم وغير المسلم.

ثم إن الحق سبحانه يُذيب بالصلاة الفوارق الاجتماعية التي تقتضيها أعمالنا، فتلتفت ساعة يقول المؤذن: (اللَّه أكبر) تجد أن الكُلَّ قد جاء، الغنيّ قبل الفقير، والخفير مع الأمير، فيخلع الجميع أقدارهم خارج المسجد مع نعالهم ليتساوَوْا في الصلاة، ومَنْ له رئيس يتكبَّر عليه يراه وهو ساجد مِثْله للَّه، فتريحه لحظة استطراق العبودية.

ولنفرض أن كُلاً منا سيُصلِّي بمفرده في الصلاة اليومية، لكن عندما يُؤذِّن المؤذِّن لصلاة الجمعة يأمرنا الحق أنْ نذرَ ونترك كل شيء لنُؤدِّي صلاة الجمعة معاً، ويرى الضعيف عظيماً يتضرع مثْله إلى اللَّه، ويرى القوي نفسه وبجانبه

الضعيف، وحين يعود كُلٌّ مِنَّا إلى عمله تسقط أقنعة القوة والزهو؛ لأننا جميعاً نقف أمام خالق واحد، وكلنا سواء.

إن هذا هو الاستطراق الاجتماعي؛ لأننا حين نركب بعضنا في أثناء الصلاة نجد أنفسنا في حَضْرة الرب الذي أعدَّ لنا الكون، وسخّره لنا، وأعطانا الطاقات، وأعطانا المواهب.

والصلاة تهَبُ المؤمنين الاطمئنان؛ ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا حَزبه[1] أمر قام إلى الصلاة[2].

وليجرب هذا كُلُّ واحد مِنَّا عندما يصعبُ عليه شيء، وتتأزم الأمور، وتمتنع الأسباب، فليقُمْ ويتوضّأ وضوءاً جديداً ويبدأه بالنية حتى ولو كان مُتوضّئاً، وليقف بين يدي الله، وَلْيقُلْ: إنه أمر يا ربِّ عزَّ عليَّ في أسبابك، وليُصلِّ بخشوع.

وأنا أجزم بأن الإنسان ما إنْ يُسلِّم من هذه الصلاة إلا ويكون الفرج قد جاء، ألم نتلقَّ عن رسول الله هذا السلوك البديع؟ إنه كلما حَزبه أمْر قام إلى الصلاة؟

وما دامت الصلاة تريح القلب فلأذهبْ إليها وألْقى ربي، فحين يقف المؤمن بين يدَيْ الله ويُصلِّي، يمتلئ بالرضا والتوازن النفسي، فالمؤمن يذهب إلى الخالق سبحانه ليسأله أنْ يُخفِّف عنه الهَمَّ والحزن.

وأفضل مكان نلتجئ فيه إلى الله تعالى هو بيته، فتردُّد المسلم على بيت الله ليكون في حَضْرة ربه دائماً هو إصلاحٌ لما في النفس، فبيوت الله هي أماكن تلقِّي النور المعنويّ من عند الله سبحانه وتعالى، وهو النور الذي يُعطينا ارتقاء الروح.

---

(١) حزبه أمر. أي: أصابه. أي: إذا نزل به مهم أو أصابه غَمٌّ. وحزبه الأمر يحزبه: نابه واشتد عليه. وحوازب الخطوب، وهو جمع حازب، وهو الأمر الشديد. (لسان العرب ـ مادة: حزب).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٣٨٨)، وأبو داود في سننه (١٣١٩) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

فالمساجد لها مهمة العيادة للطبيب الخالق[1] الذي خلق هذه النفس، ويعرف كيف يداويها، وليس للطبيب الدارس في كلية الطب الذي يعرف أشياء، وتغيب عنه أشياء.

ونحن في المساجد إنما نعيش في حضرة الحق تبارك وتعالى نتلقَّى منه التجليّات والفُيوضات التي تعالج نفوسنا، أكثر مما يعالجها أبرع أطباء العالم.

فأنت في بيت اللَّه تكون في ضيافة اللَّه، وأنت تعلم أنه إنْ جاءك أحد في بيتك على غير دعوة فأنت تُكرمه، فإذا كان المجيء على موعد فكرمُك يكون كبيراً، فما بالنا بكرم مَنْ خلقنا جميعاً؟

إن الحق سبحانه وتعالى يجزيك من فَيْض كرمه، من ساعة أن تنوي زيارته في بيته، فأنت في صلاة منذ أنْ تبدأ في الوضوء في بيتك، استعداداً للصلاة في المسجد؛ لأنه سبحانه وتعالى يريد أنْ يطيل عليك نعمةَ أنْ تكونَ في حَضْرته.

وربُّ العزة سبحانه حين يدعونا إلى بيته بالأذان، فلك أنْ تعلم أنك إنْ خالفتَ هذه الدعوة تُعاقب، ولكن ليس معنى هذا أن اللَّه يُيسِّر لك بيته لتزوره في أيِّ وقت.

فهذه الدعوة بالأذان للصلاة تُمثِّل الحرص من اللَّه سبحانه على أنْ يلقاك ليُعطِيك من فيوضاته ما تستعين به على مُكدِّرات الحياة، ولكن إنْ أحببتَ أنْ تجلسَ في المسجد قبل الصلاة أو بعدها فافعل، تعالَ في أيِّ وقت، وصَلِّ كما تشاء.

فإذا قلتَ: «اللَّه أكبر» تكون في حَضْرة اللَّه، وإنْ لم تستطع فصلواتك الخمس في اليوم الواحد هي القِسْط الضروري لصيانة نفسك المؤمنة؛ لأنك تُقابل ربك أثناء الصلاة وتُعلن الولاء له سبحانه.

---

(١) تعبير «الطبيب الخالق» الذي استخدمه فضيلة الشيخ الشعراوي هنا هو تعبير استخدمه رسول اللَّه ﷺ، وذلك في حديث أبي رمثة رضي اللَّه عنه قال: انطلقت مع أبي نحو النبي ﷺ، فإذا هو ذو وفرة بها ردع حناء وعليه بردان أخضران فقال له أبي: أرني هذا الذي بظهرك فإني رجل طبيب قال: «اللَّه الطبيب، بل أنت رفيق، طبيبها الذي خلقها» أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ١٦٣)، وأبو داود في سننه (٤٢٠٦، ٤٢٠٧).

فالصلاة ـ إذن ـ خير أراده الله لك حتى لا تأخذك أسباب الحياة، وأراد سبحانه بها أنْ تُفيقَ إلى منهجه الذي يُصلح بالك، ويُصلح الدنيا لك وبك، فلا تأخذك الأسباب، بل تأخذ أنت بالأسباب.

وحين تسمع «الله أكبر» ينادي بها المؤذّن لصلاة الظهر ـ مثلاً ـ فعليك أنْ تتركَ أسباب الدنيا، وتذهب لتقف بين يدي الله عز وجل، ثم تخرج من الصلاة إلى الأخذ بالأسباب إلى أن تسمع أذان العصر، ثم أذان المغرب، ثم أذان العشاء.

كلُّ هذا تذكيرٌ لك بالله الخالق العظيم حتى لا تشغلك الدنيا، فتنسى أن صيانة نفسك بيد خالقك سبحانه، وأطول فترة بين العشاء والفجر نكون فيها نائمين، فلا يأخذنا متاع الدنيا.

إذن: فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يريد منا الولاء دائماً، فإذا كنتَ تعتزُّ بالله فأنت تُديم الولاء له باستمرار الصلاة، وأنت حين تسجد لله وتتذلَّل له، فإنه سبحانه يزيدك عِزَّة، ويكون معك دائماً، ويقيك ذُلَّ الدنيا.

وقد جعل الحق سبحانه الذين يحافظون على صلواتهم من ورثة الفردوس، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٩ ـ ١١].

أي: أنهم يُؤدُّونها في أوقاتها لا يُؤخّرونها عنها، فبعض الناس يقولون: وقت الصلاة ممدود إلى ما قبل دخول وقت الصلاة التي بعدها، مع أن هذا من رحمة الله بنا وتخفيفه علينا، وهذا يكون للمضطر فقط؛ لأنك لا تضمن أنْ تعيشَ من العشاء إلى الفجر.

ويقول الحق سبحانه في آية أخرى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ[1] وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

---

(١) قال أبو بكر الجصاص في «أحكام القرآن» (١/ ٥٣٦): «أكّد الصلاة الوسطى بإفرادها بالذكر مع ذكره سائر الصلوات، وذلك يدل على معنيين:
ـ إما أن تكون أفضل الصلوات وأولاها بالمحافظة عليها فلذلك أفردها بالذكر عن الجملة.
ـ وإما أن تكون المحافظة عليها أشدّ من المحافظة على غيرها».

فما دُمْتُم قد ذُقْتم حلاوة الصلاة في القرب من معية ربكم، وذلك أجدر وأَوْلَى أنْ تتمسَّكوا بها أكثر، وذلك القولُ يسري على الصلوات الخمس التي نعرفها.

وقد أخفى اللَّه ذكر الصلاة الوسطى، ليكون هذا أدْعَى للمحافظة على الصلوات جميعاً.

فلو حاولنا تحديد الصلاة الوسطى باعتبارات مختلفة فسنجد أن اللَّه أبهمها، لتتحقق ديمومة طاعة اللَّه ولزوم الخشوع والخضوع[1].

فإذا كان الاعتبار بفرضية الصلاة، فإنَّ أولَ صلاة فرضها اللَّه عز وجل هي صلاة الظهر، هذا أول فَرْض، وبعده العصر، فالمغرب، فالعشاء، فالفجر، فإنْ أخذت الوسطى بالتشريع فهي صلاة المغرب، وهذا رَأْيٌ يقول به كثير من العلماء.

وإنْ أخذنا الوُسْطى بحسب عدد ركعات الصلاة فسنجد أن هناك صلاة قوامها ركعتان هي صلاة الفجر، وصلاة من أربع ركعات هي صلاة الظهر والعصر والعشاء، وصلاة من ثلاث ركعات هي صلاة المغرب، والوسط فيها هي الصلاة الثلاثية، وهي وسط بين الزوجية والرباعية، فتكون هي صلاة المغرب أيضاً.

وإنْ أخذناها بالنسبة للنهار فالصبح أول النهار، والظهر بعده، ثم العصر والمغرب والعشاء، فالوُسْطى هي العصر.

وإنْ أخذناها على أنها الوَسَط بين الجَهْرية والسرية، فيحتمل أن تكون هي صلاة الصبح أو صلاة المغرب؛ لأن الصلوات السرية هي الظهر والعصر،

---

(١) ذكر ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٩٠) الاختلاف الكثير في تحديد الصلاة الوسطى، فساق الأقوال كلها بأدلتها (١/ ٢٩٠ ـ ٢٩٤): أنها صلاة: الصبح، الظهر، العصر، المغرب، العشاء. وقيل: بل الصلاة الوسطى مجموع الصلوات الخمس وخطَّأ هذا القول. وقيل: بل هي صلاة الجماعة. وقيل: صلاة الجمعة. وقيل: صلاة الخوف. وقيل: صلاة عيد الفطر. وقيل: صلاة الأضحى. وقيل: الوتر. وقيل: الضحى. ثم قال: «وتوقف فيها آخرون لما تعارضت عندهم الأدلة ولم يظهر لهم وجه الترجيح ولم يقع الإجماع على قول واحد، بل لم يزل النزاع فيها موجوداً من زمان الصحابة وإلى الآن».

والجهرية هي المغرب والعشاء والفجر، وبين العشاء والظهر تأتي صلاة الصبح، أو صلاة المغرب باعتبار أنها تأتي بين الظهر والعصر من ناحية، والعشاء والصبح من ناحية أخرى.

وإنْ أخذناها لأن الملائكة تجتمع فيها، فهي في طرفي النهار والليل فذلك يعني صلاة العصر أو صلاة الصبح، إذن: فالوسط يأتي من الاعتبار الذي تُحسب به إن كان عدداً أو تشريعاً، أو عدد ركعات، أو سرية أو جهرية، أو بحسب نزول ملائكة النهار والليل، وكل اعتبار من هؤلاء له حكم.

obeikandl.com

ائتيا طوعاً أو كرهاً

٤١ ـ عَن ابْنِ عبَّاسٍ في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١].

قال للسماء: أَخرجي شَمْسَكِ وقَمرَكِ ونُجومَكِ.

وقالَ للأرضِ: شَقِّقِي أَنهارَكِ وأَخرجي ثِمارَك.

فقالَتا: أتينا طَائِعِينَ(١).

إن كل شيء في السماوات وفي الأرض قد أسلم لله طَوْعاً أو كَرْهاً، وهي طاعة التسخير، فكلُّ مَا لا تكليفَ له جاء طائعاً مُسَخَّراً، فأجناسُ الملائكة والجماد والنبات والحيوان، كُلٌّ منهم يؤدي مهمته بخضوع، ولا يعترض أحدٌ منهم، ولا يملك أحدهم قدرةً على العصيان.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨].

فالأجناس كلها ساجدة مُطيعة لربها، الشمس ساجدة، القمر ساجد، والنجوم، والجبال، كل هذه الجمادات ساجدة، وكذلك الشجر والنبات ساجد لله، والحيوان والدوابّ ساجدة لله، وكثير من الناس سجود، لكن في مقابل هذا الكثير الساجد من البشر، هناك كثير غير ساجد؛ لذلك حَقَّ عليه العذاب.

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (١/ ٢٧) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وتفسير الصحابي عندهما مسند» وأورده السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٣١٦) وقال: «أخرجه ابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس».

فأصْل سجود هذه الأجناس كلها هو الخضوع والطاعة للّه تعالى.

فكُلُّ الكائنات تسجد للّه سبحانه، ما عدا كل أفراد الإنسان، فكثير منه يسجد للّه، وكثير منه يحِقُّ عليه العذاب؛ لأنه لا يطيع الحق، ومَنْ يَعْصِ منهج اللّه غَيْرَ مؤمن به يطرده اللّه من رحمته، ومَنْ يُهِنْه اللّه بذلك فليس له تكريم أبداً.

وقد أجمع الكون على السجود للّه، إلا الإنسان، فمنه الصالح المنسجم بعمله مع خضوع الكون للّه، ويفرح به الكون، ومنهم مَنْ يغضب منه الكون لأنه يعصي اللّه.

فالكون ـ على سبيل المثال ـ قد فرح بميلاد رسول اللّه ﷺ، فالأرض والسماء والنجوم والشجر وكل الكون فرح بمقدم الرسول الكريم، لأن كل هذه الكائنات مُسخَّرة للإنسان، وهي مُسبِّحة للّه وطائعة بطبيعتها، مثلما يأتي البشير ليهدي الإنسان إلى الصراط المستقيم ليجعله طائعاً، فهي تفرح بمقدِم هذا البشير.

ونعرف أن المكان الذي يوجد به الإنسان، هذا المكان يفرح إنْ كان الإنسان فيه طائعاً، وهذا المكان نفسه يحزن إنْ كان الإنسان عاصياً، ويضجّ المكان ـ أي مكان ـ بوجود أيّ عاصٍ فيه.

ونرى ذلك واضحاً في قَوْل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ عن قوم فرعون: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٢٩].

فالأرض التي كان بها قوم فرعون كان لها مشاعر، والجنات والأنهار والعيون وكل النعم التي ينعَمُ بها الإنسان لها مشاعر وأحاسيس وهي تغضب وتسخط وتضجّ بوجود الكافرين بنعمة اللّه فيها.

ولذلك لا تبكي السماء والأرض على الخسف والتنكيل بهؤلاء العُصَاة الكافرين المشركين، بينما تبكي السماء والأرض إنْ فارقها مؤمن.

ولنا في قول الإمام علي ـ كَرَّم اللّه وجهه ـ إيضاح لهذا، فقد قال: إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان: موضع في السماء، وموضع في الأرض. أما

موضعه في السماء فهو مصعد عمله الطيب، وأما موضعه في الأرض فهو موضع مُصلاه[1].

إذن: فموضع صعود عمل الإنسان في السماء يحزن؛ لأن هناك فقداناً لعمل صالح يمرُّ فيه، وموضع صلاة الإنسان يفقد سجودَ إنسان خشوعاً للّه.

ولكل الكائنات المخلوقة للّه مشاعر، وكل شيء في الكون يؤدي مهمته بقانون التسيير والتسخير، لا قانون التخيير، إلا الإنسان، فهو فقط الذي يحيا بقانون التخيير في بعض أحواله؛ لأنه قادر على الطاعة، وقادر على المعصية.

وقد شاءتْ قدرة الحق سبحانه أنْ يخلق السماء على هيئة دخان فَوُجدت، وخلقه للسماوات والأرض على وفق إرادته، وهو هيّن عليه بمنزلة ما يُقال للشيء: احضر راضياً أو كارهاً، فيسمع الأمر ويطيعه.

وهذه أمور تسخيرية من الخالق الأكرم، وليس للمخلوق من سماوات وأرض وما بينهما إلا الامتثال للأمر التسخيري من الخالق عَزَّ وجَلَّ.

وقد يتساءل بعض الناس: هل تتكلم الأرض والسماء وغيرهما من المخلوقات في عالم الجماد والنبات والحيوان؟

نقول: نعم، إن لها لغةً لا نعرفها نحن، وإنما يعرفها خالقها، فللّه سبحانه مع خَلْقه أدوات خطاب؛ لأنه هو الذي خلق الكون والمخلوقات، وله سبحانه خطاب بألفاظ، وخطاب بإشارات، وخطاب بإلهام، وخطاب بوحي.

فاللّه ـ عز وجل ـ يخاطب جميع خَلْقه، ويجيبه جميع خَلْقه، والأمثلة على هذا كثيرة في القرآن الكريم.

فالحق سبحانه خاطب ذرية آدم، وهي في ظَهْره فقال:

---

(١) أورده ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٤٢) وعزاه لابن أبي حاتم أن عباد بن عبد اللّه قال: سأل رجل علياً رضي اللّه عنه: هل تبكي السماء والأرض على أحد؟ فقال له: لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك، إنه ليس من عبد إلا له مُصلّى في الأرض ومصعد عمله من السماء، وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح في الأرض ولا عمل يصعد في السماء، ثم قرأ علي رضي اللّه عنه: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٩].

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وهنا قد يقول قائل: أكان لهذه الذرية القدرة على النطق، إنها ذرية تنتظر التكوين الآخر؛ لتتحد مثلاً بـ «البويضة» في رحم الأم؟

فنردُّ عليه ونقول: لماذا تظن أن مخاطبة ربنا لهم أمر صَعْب؟ إن الواحد من البشر ـ ولله المثل الأعلى ـ يستطيع أنْ يتكلَّم عشر لغات، ويتزوج من أربع سيدات، كل سيدة ينجب منها ذرية، ويقعد يوماً عند سيدة وذريتها ويُعلِّمها اللغة الإنجليزية مثلاً، ويجلس مع الأخرى ويُعلِّمها اللغة الألمانية، ويُعلِّم الثالثة وأولادها اللغة العربية، وهكذا، بل يستطيع أن يتفاهم حتى بالإشارة مع مَنْ لا يعرف لغته.

وإذا كان الإنسان يستطيع أن يُعدِّد وسائل الأداء، ألا يقدر أنْ يُعدِّد ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ وسائل الأداء لمخلوقاته؟

إنه قادر على أنْ يُعدِّد ويخاطب، ألم يَقُلْ الحق ـ تبارك وتعالى ـ للجبال: ﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى[1] مَعَهُۥ ﴾ [سبأ: ١٠].

كيف ـ إذن ـ لا يتسع أفق الإنسان لأنْ يدرك أن الله قادر على أنْ يخاطب أيّاً من مخلوقاته؟ إنه قادر على أنْ يخاطب كُلَّ مخلوق له بلغة لا يفهمها الآخر.

والحق سبحانه قد خاطب السماء والأرض، فقال:

﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى[2] ﴾ [هود: ٤٤].

وذلك في قصة نوح عليه السلام والطوفان، وساعة أن يأتي في القرآن أمر من الله تعالى مثل: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ ﴾ [هود: ٤٤]، فافهم أن القائل هو مَنْ تنصاع له الأرض.

فالحق سبحانه لم يَقُل: «قال الله يا أرض ابلعي ماءك»؛ لأن هناك أَصْلاً

---

(١) أي: رَدِّدي الذكر والتسبيح مع داود عليه السلام. (القاموس القويم ١/ ٤٢).

(٢) أقلع عن الشيء: كف عنه. وأقلعت السماء: كفَّتْ عن المطر. كقوله: ﴿ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى ﴾ [هود: ٤٤]، كُفِّي عن المطر. (القاموس القويم ٢/ ١٣١).

مُتعيناً وإنْ لم يَقُلْه، والحق سبحانه يريد أنْ يُنمّي فينا غريزة وفِطْنة الإيمان، لأن أحداً غير الله تعالى ليس بقادر على أنْ يأمرَ الأرض بأنْ تبلعَ الماء.

ويكون أمره سبحانه للسماء: ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي﴾ [هود: ٤٤].

أي: أنْ تُوقف المطر، وهكذا يُنهي الحق سبحانه الطوفان الذي أغرق الدنيا بأنْ أوقفَ المصبَّ، وأعطى الأمر للمصرف أن يسحب الماء.

والحق سبحانه إذا كان قد خاطب السماء والأرض بأنْ يأتيا طَوْعاً أو كَرْهاً، فبماذا أمرهما رَبُّ العزة؟

«قال للسماء: أخرجي شمسك، وقمرك، ونجومك».

«وقال للأرض: شقّقي أنهارك، وأخرجي ثمارك».

وهنا يجب أنْ نقفَ وَقْفة، فهذا الأمر الإلهي للسماء والأرض هو في حقيقة الأمر في صالح الإنسان لخدمته، فهو قد أتى إلى كون قد هُيِّئ وأُعِدَّ له، لتستقيم حياته على هذه الأرض، وليكونَ له وجودٌ تحت هذه السماء.

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد لخَلْقه أنْ يكونوا منطقيين مع أنفسهم، فالحق سبحانه أوضح لنا في منهجه: أنتم مُستخلفون في الكون، وأنتم أيها الخلفاء في الأرض سادةُ هذا الكون، سادةٌ يخدمكم الكون كله، وانظروا إلى أجناس الوجود تجدونها في خدمتكم.

إذن: فأجناس الكون من حيوان ونبات وجماد ترضخ لإرادتك أيها الإنسان، فكُلُّ هذه الأجناس التي سبقتْ الإنسان مُسخّرة لخدمته؛ لأن كل هذا الوجود مُسخّر لخدمة الإنسان.

فالنبات يخدم الحيوان، والحيوان يخدمك أيها الإنسان، والجماد يخدم الجميع، والعناصر التي نأخذها نحن البشر من الجماد يستفيد منها أيضاً النبات والحيوان.

إذن: فكُلُّ جنس في الوجود تراه بعينيك إنما يخدم الأجناس التي تعلوه، وقد كان من واجب عقلك عليك أيها الإنسان أن تفكر فيمن ترتبط به ارتباطاً يناسب سيادتك على الأجناس الأخرى، كان لا بُدَّ أن تبحث عَمَّنْ أعطاك السيادة على الأجناس الأخرى.

هل أنت أيها الإنسان قد سخّرْتَ هذه الأجناس بقدرتك وقوتك؟ لا. فلستَ تملك قدرةً ذاتية تتيح لك ذلك؟ أمّا كان يجب عليك أنْ تفكر ما هي القوة التي سخّرتْ لك مَا لا تقدر عليه، فخدمتْكَ حين لا توجد لك قدرة، وخدمتْكَ وأنت نائم تغطُّ في نوم عميق؟

وأنت لست وحدك في هذا الكون، بل هناك أجناس أخرى، وكل جنس من الأجناس له قانونه، وله مهمته، للحيوان مهمة، وللنبات مهمة، وللجماد مهمة، فهل وجدتَ جنساً من الأجناس تمرّد على مهمته؟ لا.

إن الحصان مثلاً، نستخدمه كمطيّة عليها وسادة من حرير وجلد، ولها لجام من فضة لتركبه، وتجد هذه المطية في يوم آخر تحمل سماد الأرض من رَوْثِ الحيوان وما تأبَتْ، لقد أدّتْ الخدمة لك راكباً، وأدّت الخدمة لك ناقلاً، وما تمرّدَتْ عليك أبداً.

كل الأجناس ـ إذن ـ تُؤدّي مهمتها كما ينبغي، فاستقام الأمر فيها، وما دام الأمر قد استقام، فبأيّ شيء استقام؟ إن الله هو الذي خلقها وذلّلها، قال لها: «كوني في خدمة الإنسان، مؤمناً كان أو كافراً».

وفي هذا الأمر عدالة الربوبية، فلا تتأخّر أو تشذّ عن حركتها في خدمة الإنسان.

لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ۝ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١ ـ ٧٣].

وهكذا نعرف أن خضوع هذه الأنعام لنا هو بتسخير الله لها، وليس بقدرتنا، يأتي الله سبحانه وتعالى إلى أرض ينزل عليها المطر بغزارة، والعلماء يقولون: إن هذا يحدث بقوانين الكون، فيلفتنا الله ـ تبارك وتعالى ـ إلى خطأ هذا الكلام؛ بأنْ تأتي مواسم جفاف لا تسقط فيها حبة مطر واحدة؛ لنعلم أن المطر لا يسقط بقوانين الكون، ولكن بإرادة خالق الكون.

فإذا كانت القوانين تعمل وحدها، فَمَن الذي عطّلها؟ ولكن إرادة الخالق فوق القوانين، إنْ شاءت جعلتها تعمل، وإنْ شاءت جعلتها لا تعمل.

إذن: فكُلُّ شيء في الكون باسم اللّه، هو الذي سَخَّر وأعطى، وهو الذي يمنح ويمنع.

أرأى أحدكم الشمس مرة قالت: لم يَعُدْ الخَلْق يعجبونني، ولن أشرق عليهم وسأحتجب اليوم؟ أتمرَّدَ الهواء وقال: لا، إن الخَلْق لم يعودوا يستحقون تنفُّس الهواء؛ لذلك لن أُمكِّنهم من الانتفاع بي.

أرأينا المطر امتنع؟ هل استنبتَ الإنسان أرضاً صالحة للزراعة واستعصتْ عليه؟ لا، فكُلُّ شيء في الوجود يُؤدِّي مهمته تسخيراً وتذليلاً.

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يُطلق بعضاً من الحيوان فلا يُذلَّل، ولا يُستأنس، وذلك حتى تعلم أيها الإنسان أنك لم تستأنس الجمل مثلاً بقدرتك، فإنْ كانت لك قدرة مُطلقة على الكون فاستأنس بعض ثعابين هذا العالم، أو استأنس الأسد.

وأنت أيها الإنسان ترى في هذا الكون بعضاً من الحيوانات والمخلوقات شاردة مثل الثعابين والحيوانات المتوحشة بغير استئناس؛ ليدلنا الحق على أن هذا الذي يخدمك لو لم يُذلِّله اللّه لك لَمَا استطعتَ أنت بقدرتك أنْ تُذلِّله، إنه تذليل وتسخير وخضوع لهذه المخلوقات، منحه اللّه تعالى لك أيها الإنسان تفضُّلاً منه ـ سبحانه ـ مع عَجْزك وضَعْفك.

ولم نجد شيئاً نافعاً قد عصى الإنسان في الكون؛ لأن كل الخَلْق مُسخَّر من اللّه لخدمة الإنسان كافراً كان أو مؤمناً، وهذا هو عطاء الربوبية؛ لأن عطاء الربوبية يشمل الخَلْق جميعاً، فالخالق الأكرم هو رَبُّ الناس كلهم، ويتولَّى تربيتهم جميعاً؛ ولذلك تستجيب الأجناس من غير الإنسان للإنسان، سواء أكان مؤمناً أم كافراً.

فإنْ أحسن الكافر استخدام الأسباب فإنَّ الأسباب تعطيه ولا تعطي المؤمن الذي لا يستخدم الأسباب، أو لا يُحسن استخدامها، فهذا هو عطاء الربوبية، والربوبية للجميع، أما عطاء الألوهية فهو «افعل ولا تفعل» وهو عطاء للمؤمنين فقط.

وربُّ العزة سبحانه خاطب السماء فقال لها: «**أخرجي شمسك، وقمرك،**

ونجومك »، وخاطب الأرض فقال: « شقّقي أنهارك، وأخرجي ثمارك ».

وكأن الحق ـ سبحانه ـ يُحدّثنا عن مُقوّمات الحياة في الكون الذي أُهبط عليه الإنسان ضَيْفاً عليه، لم يصنع فيه شيئاً، بل جاء فوجد كل شيء مُهيَّئاً له مُعَدّاً.

والحق سبحانه يقول في قرآنه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

فالحق سبحانه جاء لنا بنِعَم من آياته التي خلقها لنا، والتي جعلها الله ـ سبحانه وتعالى ـ سبباً لقوام الحياة، فالشمس هي التي تُنضج لنا كل شيء في الوجود، وتُعطي لكل كائن الإشعاع الخاص به، كما أن الشمس تُبخّر المياه لينزل الماء بعد ذلك عَذْباً فراتاً، يرتوي منه الإنسان، وتشرب منه الأنعام، ونروي به الزرع.

والشمس هي الأم لمجموعة من الكواكب التي تدور حولها، فدورة الأرض حول الشمس تمثل السنة، ودورة الأرض حول نفسها تمثل اليوم.

وقد عرفنا أن هناك مطالعَ متعددةً للشمس، وعلى الرغم من أن المشرق له جهة عامة واحدة، لكن المطالع مختلفة، بدليل أن قدماء المصريين أقاموا في بعض المعابد طاقاتٍ وفتحاتٍ في البناء، فتطلع الشمس كل يوم من أحد هذه الطاقات، فكل يوم توجد لها منزلة مختلفة عن اليوم السابق، وتظل تقطعها، ثم تعود مرة أخرى، وتفعل ذلك إلى أجل مُسمى أي يومياً.

ونُسمي نحن تلك المنازل « البروج »، كبرج الحَمَل والجدي والثور والأسد والحوت، ونحن نرصد هذه الأبراج كوسيلة لمعرفة أحوال الطقس من حرارة وبرودة ومطر وغير ذلك، ذلك أن كل برج له زمن، ويمكن تعرُّف أحوال الجو خلال هذا الزمن بدقة.

ويقول الحق سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢].

ونعلم أن الليل والنهار آيتان واضحتان، والليل يناسبه القمر، والنهار

تناسيه الشمس، وهم جميعاً مُتعلِّقون بفعل واحد وهو «سَخَّر»، وهم نَسَق واحد، والتسخير يعني قهر مخلوق لمخلوق ليؤدي كُلٌّ مهمته، وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر، كُلٌّ له مهمة، فالليل مهمته الراحة، والنهار له مهمة أن تكدح في الأرض لتبتغي رزقاً من اللَّه وفضلاً.

والشمس جعلها الحق سبحانه مصدراً للطاقة والدفء، وهي تعطيك دون أن تسأل، ولا تستطيع هي أيضاً أن تمتنع عن عطاء قدَّره اللَّه؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: ٣٣].

والدؤوب هو مرور الشيء في عمل رتيب ونظام دقيق، ولكل من الشمس والقمر فَلَك خاصٌّ، وحركة محسوبة بدقة فلا يصطدمان، وقد سخَّر لنا الحق سبحانه الليل والنهار، وهما من الأعراض الناتجة عن تسخير الشمس والقمر، وكُلٌّ من الشمس والقمر دائبان، يمشي كل منهما في حركته مَشْياً لا تنقطع فيه رتابة العادة، ونضبط أوقاتنا على هذا النظام الرتيب الدقيق، فنحدِّد ـ على سبيل المثال ـ أوائل الفصول، ومواسم الزراعة، ومواقيت الصلاة.

ثم إنَّ تعاقُبَ ظهور الشمس والقمر يُسبِّب تعاقب مجيء الليل والنهار، ولا يعني ظهور الشمس وسطوعها أن القمر غير موجود، فهو موجود ولكن ضَوْءَ الشمس المبهر يمنعك من أنْ تراه، ولكن هناك أوقات يمكنك أن ترى فيها الشمس والقمر معاً.

أما النجوم، فقد قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧].

والنجوم هي الأجرام اللامعة التي نراها في السماء لنهتدي بها في ظلمات البر والبحر، ومن رحمته بنا وعلمه أن بعض خَلْقه ستضطرهم حركة الحياة إلى الضرب في الأرض، والسير ليلاً في الأرض أو البحر مثل مَنْ يحرسون ويشيعون الأمْن في الدنيا، ولا يمكن أن يناموا بالليل، بل لا بُدَّ أنْ يسهروا لحراستنا، كُلُّ ذلك أراده اللَّه بتقدير عزيز حكيم عليم.

ولذلك ترك لنا النجوم ليهتدي بها هؤلاء الذين يسهرون، أو يضربون[1]

---

(١) يقول تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]، والضرب في =

في الأرض، أو يمشون في البحر بسفنهم، وهم يحتاجون إلى ضَوْءٍ قليل ليهديهم؛ ولذلك كان العرب يهتدون بالنجوم.

يقول الواحد منهم للآخر: اجعل النجم الفلاني أمام عينيك، وسِرْ نحو الجهة الفلانية. إذن: لو طمَّتْ الظلمة لمنعت الحركة بالليل، وهي حركة قد يُضطرُّ إليها الكائن الحي، فجعل الحق سبحانه النجومَ هدايةً لمن تجبرهم الحياة على الحركة في الليل.

وعلى ذلك، فالنجوم ليست فقط للاهتداء بها في ظلمات البر والبحر؛ لأنه لو كان القصد منها أنْ نهتديَ بها في ظُلمات البرِّ والبحر، لكانت كلها متساوية في الأحجام، لكِنّا نرى نجماً كبيراً وآخر صغيراً، وقد يكون النجم الصغير أكبر في الواقع من النجم الكبير، لكنه يبعد عنا بمسافة أكبر.

وعلى ذلك لا تقتصر الحكمة من النجوم على الهداية بها في حركة الإنسان بَرّاً وبَحْراً، فليستْ هذه هي كل الحكمة؛ لذلك يأتي الحق في أمر النجوم بقول كريم آخر، يقول سبحانه: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [الواقعة: ٧٥، ٧٦].

وكل يوم يتقدم العلم يُبيِّن لنا الحق أشياء كثيرة، فها هو ذا المُذَنَّب الذي يقولون عنه الكثير، وها هي ذي نجوم جديدة تُكتشف تأكيداً لقول الحق: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْىدٍ [١] وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧].

أي: أنه سبحانه قد خلق عالماً كبيراً، وأنت أيها الإنسان قد أخذت منه على قَدْر إدراكاتك وامتداداتك في النظر الطبيعي الذي لا تستخدم فيه آلة إبصار.

والحق سبحانه يُوضح: إنني خلقتُ لكم الأشياء مما قَدَرْتُكم بعقولكم أنْ تصلوا إلى شيء من الحكمة فيها، ولكن لا تقولوا: هذه مُنتهى الحكمة، بل وراءها حِكَم أعلى، فسبحانه هو الحكيم القادر، إنك قد تدرك جانباً يسيراً

= الأرض: الذهاب فيها والتنقل في البلاد، ويُكنَّى به عن السعي في طلب الرزق (القاموس القويم ١/ ٣٩١).

(١) بأييد: أي بقوة وقدرة. وهو ذو أيد. أي: صاحب قوة. آد العزم وآد الرجل: قوي واشتد فهو أيِّد أي قوي. (القاموس القويم ١/ ٤٥).

من حِكَم اللَّه، ولكن عليك أنْ تعلم أنَّ كمال اللَّه غير مُتناهٍ، ولا يزال في مُلْك اللَّه ما لا تستطيع إدراك حكمته، إلى أن يُنهي اللَّه الأرض ومَنْ عليها.

فللنجوم تأثيرها في الجو، وهي علامات نهتدي بها، فَضْلاً عن تأثيرها على الحرارة والرطوبة والنباتات، وهي فوق كل ذلك تؤدي مهمة جمالية كبيرة، وهي أنْ تكون زينةً لكل مَنْ ينظر إليها.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢].

فالمصابيح في السماء كالشمس والقمر والنجوم والكواكب، هذه المصابيح تنير وتضيء، فنور الشمس يُسمَّى «ضياء»، والضياء نور مع حرارة، والنور نور فقط، والقمر نور؛ ولذلك سَمَّوْه «النور الحليم»، أما ضوء الشمس فيُسمَّى ضياء، وتُسمَّى الشمس أيضاً سِراجاً.

والسراج ينير، وفيه حرارة كالشمس؛ لأن الحرارة يحتاجها الكون للحياة والأحياء الموجودة فيه؛ والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١].

أما الأنهار والثمار التي أمر ربُّ العزة الأرض أنْ تخرجها، فقد قال الحق سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [الرعد: ٣].

والنهر يُطلقُ على ما يحمل المياه العَذْبة، أما البحر فهو المُكوَّن من الماء المالح، وأنت إذا استعرضت أنهار الدنيا كلها ستجد أن مجاريها تصبُّ في البحار، وهذا دليلٌ على أن منسوبَ النهر أعلى دائماً من منسوب البحر، ولو كان الأمر بالعكس لَطغى ماء البحر على مياه النهر، ولَما استطعنا أنْ نشربَ أو نزرع.

ولذلك شاء الحق ـ سبحانه ـ أن يجعل الماء العذب هو الأعلى؛ لأن له مهمة يؤديها قبل أنْ يصبَّ في البحر، أقول ذلك حتى نعلم الحكمة في قَوْل الحق سبحانه: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ٢٠].

ومن العجيب أن البرزخ الذي يفصل بين النهر والبحر يكون انسيابياً، يتدرج نزول مياه النهر في مياه البحر بما يحقق سهولة في هذا الانتقال، ومن العجيب أيضاً أنك إنْ حفرتَ عند شاطئ البحر قد تعثر على الماء العذب.

ولذلك، حين نزور العريش نجد شاطئاً باسم «شاطئ النخيل» ونحن نعلم أن النخيل يحتاج إلى الماء العَذْب، وكأن الحق سبحانه قد جعل في هذا النخيل خاصية استخلاص الماء العذب من هذا المكان الذي يوجد على البحر، وقد تكون له جداول عَذْبة.

فسبحانه القائل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١].

ونحن في الريف نجد منْ يحفر بئراً ويكون ماؤه عَذْباً، وآخر يحفر بئراً، ويكون ماؤه مالحاً، وهذا دليل على أن الماء في بطن الأرض غير مختلط، بل لكُلٍّ مسارب تختلف باختلاف نوعية المياه.

ويُرتِّب الحق سبحانه في نفس الآية مجيء الثمرات كنتيجة على وجود الثابت ـ الجبال ـ كمصدر للغزين وخصوبة الأرض، وعلى وجود الأنهار التي تحمل الماء اللازم للريّ، وهكذا يكون مجيء الثمرات أمراً طبيعياً.

والثمرة ـ كما نعلم ـ هي الغاية من أيّ زرع، والثمرات هي نتاج ما تعطيه الأرض من نباتات قد تأكل بعضاً منها، وقد لا تأكل البعض الآخر، فنحن نأكل العنب مثلاً، ولكنّا لا نأكل فروع شجرة العنب، وكذلك نأكل البرتقال، ولكنّا لا نأكل أوراق وفروع شجرة البرتقال.

وقد قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ[1] يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

وهو قَوْلٌ يدل على الإعجاز، فعلى الرغم من أنها متجاورات إلا أن كلاً

(١) الصنو: المثل، إذا طلعت اثنتان أو أكثر من النخل أو الشجر من أصل واحد. قيل لكل واحد منهما صنو. والجمع صنوات. (القاموس القويم ١/ ٣٨٤).

منها تناسب الطقس الذي توجد فيه، فزراعة الذرة تحتاج مناخاً معيناً، وكذلك زراعة الموز.

وهكذا تجد كل منطقة مناسبة لما تنتجه، فالأرض ليست عجينة واحدة استطراقية، بل هي تربة مناسبة للجو الذي توجد به، فهناك قطعة سَبْخة لا تنبت وأخرى خِصْبة تنبت.

بل، وتختلف الخصوبة من موقع إلى آخر، ومن قطعة إلى أخرى، فثمرة الجوافة من شجرة معينة في منطقة معينة تختلف عن ثمرة الجوافة من شجرة في منطقة أخرى، والقمح في منطقة معينة يختلف عن القمح في منطقة أخرى، ويحدث ذلك رغم أن الأرض تُسْقى بماء واحد.

مثال هذا: هو شجرة المانجو أو النخلة المثمرة، ويمكنك أن تلاحظ بنفسك، وسترى أنك ستنتقي من ثمار المانجو القادمة من شجرة واحدة ما يعجبك، وترفض غيْرها من الثمار، وسترى أنك تنتقي من ثمار البلح القادم من نخلة واحدة ما يروق لك، وترفض بعضاً من ثمار نفس النخلة.

وأنت لا تجد في الثمار تشابهاً، بل اختلافاً في الطعم من نوع إلى نوع، كذلك تجد اختلافاً في طريقة تناولها، فلا أحدَ مِنَّا يأكل البلحة بكاملها، بل نأكل ثمرة البلحة بعد أنْ نُخرج منها النواة، ونأكل ثمرة التين بأكملها، ونُخرج ما في قلب حبة المشمش من بذرة جامدة، ثم نأكل المشمشة من بعد ذلك.

فكُلُّ ثمرة لها نظام خاص: فهناك اختلاف، وهذا الاختلاف يمتدُّ إلى أدقِّ التفاصيل، لدرجة أنك حين تتناول قِطْفاً من العنب تجد اختلافاً لبعض من حبَّات العنب عن غيرها.

والحق سبحانه وزَّع الفضل في الأطعمة والفواكه والثمار، وانظر إلى نفسك لحظة أنْ تُقدَّم لك أصناف متعددة من الفاكهة، فقد تأخذ ثمرة من الجميز قبل أن تأخذ ثمرة من التفاح، فساعة طلبتْ نفسك ثمرة الجميز صارتْ في تقدير الموازين والتبادل هي الأفضل، وكلُّ إنسان يمكن أنْ يجد ذلك فيما يخصُّه أو يُحبه.

وقد كان إنسان مُشْرف على نفسه، ثم انصبَّتْ عليه الهداية مرة واحدة، ورآه كل مَنْ حوله وهو مُقبل على اللَّه، فسألوه عن سبب الهداية، فقال:

كنت أجلس في بستان، ثم رَاقَ لي عنقود من العنب، فقطفتُ العنقود، وأخذت أتأمل فيه فوجدت غشاءً رقيقاً شفافاً ـ وهو قشرة حبة العنب، يشِفُّ عَمَّا تحته من لحم العنب الممتلئ بالعصير.

وحين وضعتُ حبة العنب في فمي صارت ماءً رَطْباً، وأخذني العجب من احتفاظ حبة العنب ببرودتها ورطوبتها رغم حرارة جو شهر بؤونة، ثم وجدت بذرة الحبة ولها طَعْم المِسْك، فلمَّا غمرني السرور من طَعْم وجمال العنب سمعت هاتفاً يهتف بي: «**كيف تكفر بالله وهو خالق النِّعَم؟**».

فهتفتُ: آنَ يا ربُّ أنْ أؤمنَ بك.

Obeikandl.com